الديمقراطية الأثينية

ابراهيم السايح

مر المجتمع اليوناني بالعديد من المراحل وصولاً إلى شكل سياسي معين لحكم المدن أو الدويلات التي كانت تحكم اليونان و تنقسم إلى العديد منها .

و لعل أوضح المدن اليونانية في مجال التطور السياسي هي مدينة أثينا ، تلك المدينة التي تزعمت المدن اليونانية لفترة من الزمان ، و التي تميزت عن المدن الأخرى بالتطورات السياسية و الثقافية و الفنية التي كان لها فيها صفة الريادة في بلاد اليونان .

و قد مرت مدينة أثينا عبر تاريخها بسلسلة من التطورات السياسية ، فبدأت بالنظام القبلي ، حيث كانت الهجرات الاستيطانية تتم في شكل قبائل تستقر في إحدى المناطق ، ثم يتولى أحد زعماء القبائل الحكم إلى جانب مجلس استشاري يتكون من رؤساء العشائر أو القبائل الأخرى ، و قد أدى هذا النظام إلى ظهور الملكية ، و هي أولى النظم السياسة المستقرة التي شهدتها بلاد اليونان ، و كان الملك هو الشخص الذي انتقلت إليه سلطة رؤساء القبائل ، و صار حاكما على المدينة و قبائلها و عشائرها و تخومها ، و كانت تجتمع في شخص الملك السلطات السياسية و العسكرية و الدينية ، و قد شهدت هذه المرحلة مجلساً يشارك الملك في الحكم ، و يتشابه من حيث التكوين مع مجلس رؤساء العشائر ، و ذلك المجلس هو الذي يتكون من ممثلي الطبقة الارستقراطية من ملاك الأرض و الأثرياء ، و كان وجوده إلى جانب الملك في السلطة يمثل تكريساً لمبدأ الطبقية القائمة على الملكية و الثراء ، و لعل هذا هو ما جعل الحكم في هذه المرحلة شبيها في توجهاته و نظمه مع مرحلة زعماء القبائل (١) .

و تطورت الأمور بعد ذلك حين شعرت الطبقة الارستقراطية بأهميتها و بدأت في ادارة صراع السلطة مع الملك ، و أخذ الارستقراطيون ينتزعون سلطات الملوك الواحدة تلو الأخرى

---

(1)Arist., Αθηναιων Πολιτεια , II - III , IV - Texte Etabli et Traduit , Paris ,1922 Cf: Glotz , G ., The Greek City and its Constiution.,Tr by Mallinson .N . P 50-52. London 1929 .

حتى تمكنوا فى نهاية الأمر من اسقاط النظام الملكى و الأستئثار بالسلطة (٢) ، و خلال فترة حكم الارستقراطيين شهدت أثينا صورة من صور الصراع الطبقى الصارخ ، حيث كان الارستقراطيون يستخدمون كل شىء لصالحهم ، و يطيحون بمصالح الطبقات الأخرى و خاصة طبقة العامة و الفقراء و المعدمين ، و قد ساعد على ذلك عدم وجود قوانين مكتوبة أو تفسير واضح للقوانين و الأعراف القائمة ،و أدى هذا الوضع إلى قيام الارستقراطيين بتفسير ووضع كل القوانين لمصالحهم الشخصية ، و ازدادت بذلك امتيازاتهم بينما ازداد العامة فقراً وتدهوراً.(٣)

لم يطل الوقت بالارستقراطيين و انفرادهم بالسلطة ، فسرعان ما ظهرت طبقة أخرى فى المجتمع الأثينى امتلكت المال دون أن تمتلك الأرض ، تلك هى طبقة التجار الذين ازدادت ثروتهم و تضخمت نتيجة لإنتشار النشاط التجارى فى شتى المدن اليونانية و فى حوض البحر المتوسط ، شعرت هذه الطبقة هى الأخرى بأهميتها و قدرتها على منافسة الارستقراطيين ، و السعى إلى مشاركتهم فى السلطة ، و حاول الارستقراطيون بشتى السبل مقاومة أطماع التجار ، و لكنهم رضخوا فى نهاية الأمر خوفا من انضمام العامة إلى صفوف التجار و الاطاحة بهم (٤) .

تحول نظام الحكم فى ظل التحالف بين الارستقراطيين و التجار إلى النظام الأوليجركى، أو حكم الأقلية ، و هو نظام قائم على أساس سيطرة أصحاب الأراضى وأصحاب رؤوس الأموال على الحكم ، و هذا بالطبع على حساب سائر الطبقات الأخرى ، و لم يكن هذا النظام أحسن حالاً من سابقه ، إذ لم يلبث العامة أن شعروا بمدى الظلم الواقع عليهم و بدأوا فى التحرك بحثاً عن حقوقهم فى حكم عادل يكفل لهم متطلبات حياتهم

---

(2) Glotz., Op.Cit., 58 ff .
(3) Arist., Op.Cit , II - VI .
(4) Ibid .. VI - VII , VIII .
Hermann Bengeston , History of Greece , tr.by Edmund F.Bleodow,P 59 ff Ottawa, 1988 ,

الأساسية ، خاصة بعد أن صار لهم دور هام في حياة المدينة ، و أصبح منهم الحرفيون والصناع و معاونو التجار و الجنود و غيرهم من أصحاب المهن الأخرى التي كانت تمثل أهمية كبرى في حياة المجتمع الأثيني في ذلك الوقت (٥) .

أدى الصراع بين الطبقة الحاكمة و بين العامة إلى ظهور الأحزاب السياسية ، كل حزب يمثل إحدى الطبقات (٦) ، و اشتد الصراع بينهم إلى أن ظهر نظام حكم الطغاة ، و هم جماعة من الساسة الذين لا ينتمون إلى طبقة العامة ، و مع ذلك فقد استغلوا ثورة العامة في الاطاحة بحكم الأقلية ، و الاطاحة بشرعية الحكم ذاتها و صاروا حكاما مطلقين باسم العامة ، و حكموا دون مجالس نيابية أو قوانين دستورية ، و حاولوا التقرب إلى العامة بمجموعة من الاجراءات التي تحسن من أحوالهم ، كما تميزوا برعاية الفنون و الأداب (٧) ،إلا أن الأجيال التالية منهم كانت تفتقر إلى الحنكة السياسية و الخبرة ، و لذا فإنهم لم يتمكنوا من الاستمرار في السلطة و انهار حكم الطغاة أمام مطالبة كافة الطبقات و منها العامة بالشرعية والعدالة (٨) .

بعد كل التجارب التي شملت النظام الفردي ممثلاً في الملك ، و نظام حكم الأشراف ، ثم حكم الأقلية ، و كل منهما قائم على الوضع الطبقي ، ثم نظام حكم الطغاة الذي كان ظاهره لصالح العامة و باطنه غياب الشرعية و الدستور و الاتجاه نحو الحكم الفردي المطلق ، بعد كل هذا كان من الطبيعي أن يظهر إلى الوجود النظام الشعبي الديمقراطي ، آخر و أنضج نظم الحكم التي شهدها المجتمع الأثيني عبر تاريخه القديم .

و الديمقراطية هي كلمة يونانية الأصل ، تعني حكم الشعب ، و قد حاول الأثينيون تطبيقها بإخلاص شديد وفقاً لهذا المفهوم اللغوي الذي تحمله (٩) .

---

(5) Duruy , Victor : Histoire Des Grecs , T, I , P 159 ff , Paris , 1919 .
(6) Green Peter ., Ancient Greece , A concise History, P68f; 88Thames& Hudson , Reprinted 1994 .
(7) Duruy , Ibid , PP 199-217 .
(8) Glotz , Op.Cit, P.P 449-451 .
(٩) تتكون الكلمة في اللغة اليونانية من جزئين : δημος و معناها " شعب " ، و κρατος و معناها حكم أو سلطة .

بدأت أثينا التطبيق الديمقراطي بمحاولة التخلص من كل أشكال الاستبداد الطبقي الذي عانت منه في العصور السابقة ، كما حاول الأثينيون تجنب كافة العيوب التي يمكن ان تشوب النظام الديمقراطي ، و في سبيل ذلك تم تقسيم المدينة إلى مجموعة من الأحياء ، وصارت كل المناصب تشغل بالانتخاب الحر المباشر من هذه الأحياء (الديمات) ، فيما عدا القائد العسكري و مسئول المالية ، نظرا لما تحتاجه كلتا الوظيفتين من كفاءةٍ و خبرة خاصة ، و كان الانتخاب للمناصب التنفيذية و التشريعية و القضائية يتم بالانتخاب و الاقتراع السري من الأحياء المختلفة دون قيد و لا شرط سوى تمتع الشخص بالمواطنة الأثينية و بلوغه السن القانونية ، و كان نظام الحكم في هذه الفترة يعتمد على سلطة تشريعية أساسها مجلس الاكليزيا ، الذي يتكون من كافة المواطنين الأثينيين الأحرار بالغي السن القانونية ، ثم مجلس البولي ، الذي يعد الهيئة التحضيرية للاكليزيا و المشرفي على تنفيذ قراراتها، بالاضافة لذلك كانت هناك المحاكم الشعبية ، و التي كانت تتكون من قضاة يتم انتخابهم أيضاً بالاقتراع العشوائي ، و لا توجد سلطة لأحد في الغاء قراراتهم .

أما الجهاز التنفيذي فكان يتكون من الأرخون αρχων أو الحاكم ، و يساعده مجموعة من الموظفين في النواحي العسكرية و المالية و الادارية المختلفة ، و كافة المناصب الكبرى بالانتخاب فيما عدا القائد العسكري و المسئول المالي كما سبق القول (١٠) .

من خلال هذا العرض يمكن القول أن الأثينيين كانوا حريصين تماماً على الشكل الديمقراطي النموذجي ، و قد بالغوا في هذا الحرص إلى حد تحديد أجر يومي لكل مواطن عن حضوره جلسات الاكليزيا ، و ذلك حتى لا يتغيب أي مواطن عن هذه الجلسات بدعوى الحرص على كسب العيش ،و رغم كل هذا فإن أثينا لم تتمكن في ظل هذا النظام من الحفاظ على امبراطوريتها و تفوقها الاقتصادي و السياسي و العسكري بين دويلات اليونان (١١) .

---

(10) Arist., Op.Cit , XXV - XXVI .
Cf: Glotz , G ., Op.Cit , PP , 93, 222 , 242 .
(11) Powell,Anton ., Athens and Sparta , P 191 ff , Routledge ,1988 .

و لو حاولنا البحث عن الأسباب التى أدت إلى فشل الديمقراطية الأثينية فى تحقيق الاستقرار و التطور للمجتمع فسوف نجد العديد من الأسباب ، و التى يمكن ايجازها فى النقاط الأساسية التالية :

١- رغم تمسك أثينا الحرفى بالديمقراطية ، و حرصهم الشديد على تمثيل كل عناصر المواطنين فى الهيئات التنفيذية و التشريعية و القضائية ، إلا أن الفكر الديمقراطى كان أسبق بكثير من فكر ووعى مواطن هذه المرحلة ، فكان الكثير من المواطنين يحرص على الاشتراك فى جلسات مجلس الاكليزيا حرصاً على الكافأة و ليس حرصاً على الأداء و المشاركة السياسية، كما كان المحلفون أو أعضاء المحاكم الشعبية يتخذون من هذه المهمة مظهراً من مظاهر الشعور بالأهمية دون أن ينتبهوا لخطورة المهمة الموكلة بهم و ضرورة الحرص على أدائها (١٢) . أى أن التطبيق الحرفى الذى سعى اليه الأثينيون كان ينقصه ضرورة إزدياد وعى المواطن الأثينى حتى يتسق الأداء الديمقراطى النموذجى المفترض .

٢- لم يكن قادة المجتمع الأثينى ليقيموا وزناً للمشاركة الشعبية اللا محدودة فى شتى جوانب الحكم ، ذلك أن السواد الأعظم من المواطنين كان من ضحالة الفكر بحيث يمكن وقوعهم فى شراك الساسة ووعودهم الكاذبة و طموحهم الشخصى ، و لم تؤد الديمقراطية لأكثر من المشاركة الصورية لمثلى الأسة ممن أتى بهم إلى مقدمة الصفوف نظام الإقتراع العشوائى ، دون أن يكونوا فى أغلبيتهم مؤهلين لتمحيص الأمور و توجيه الحكم إلى المسار الصحيح (١٣) .

٣- لم تكن تطورات الأحداث و أنماط الصراع السياسى فى القرن الخامس ق.م تسمح للمجتمع الأثينى بالتوقف و التقاط الأنفاس و السعى لتقديم ثقافة سياسية و فكرية منتظمة لسائر المواطنين ، فقد تزامن مولد الديمقراطية مع وصول الامبراطورية الأثينية إلى ذروته

---

(12) Glotz., Op.Cit , P 241 .
Cf. Arist., Pol., VII, 5.5
(13) Antony,Andrewes,Greek Society,P 197-198,(Pelican Book) Rep.,1981.

وصارت أثينا زعيمة مطلقة لحلف ديلوس و صارت موارد هذا الحلف تكرس فى واقع الأمر لتغذية الطموح الأثينى إلى المزيد (١٤) .

و فى ظل هذا الوضع كان من المستحيل أن يتنبه الزعماء أو المواطنون إلى مسألة تطوير الأداء الديمقراطى و الشئون الداخلية للمدينة ، و انما كان الهم الأكبر للساسة و المواطنين هو الحفاظ على الانجازات الخارجية و الوضع السياسى و العسكرى المتميز لمدينتهم .

٤ – كان القرن الخامس ق.م ، و الذى شهد ميلاد الديمقراطية ، مرتعاً للكثير من التيارات الفكرية و الفلسفية و السياسية ، ففى هذه الفترة شهد المسرح الأثينى أوج ازدهاره ، كما كان هناك سقراط بمدرسته و أفكاره الجديدة ، و كذلك ظهر السوفسطائيون كاتجاه فلسفى جديد و مدرسة ابتعدت عن العلوم و اتجهت إلى الانسان و الفكر السياسى و الأدبى ، كما قاموا بتعليم السياسة و الخطابة لمن يشاء من المواطنين القادرين ، كما شهدت هذه الفترة أيضاً ازدهاراً فنيا و أدبياً لم تشهده العصور السابقة أو اللاحقة فى البلاد .

كل هذا أدى إلى وقوع المواطن الأثينى فى براثن العديد من التيارات المتعارضة ، فإن اقتنع بما يطرحه أريستوفانيس من رؤى سياسية فى المسرح الكوميدى ، عاد ووجد ما يناقض ذلك فى محاورات سقراط ، و إن شاهد مسرحية لأيسخيلوس فوجد فيها الفكر المحافظ والشكل النمطى للمسرح التراجيدى ، فإن مسرحية أخرى ليوريبيديس كفيلة بهدم هذا النمط الذى حاول أيسخيلوس تكريسه ، و هكذا فإن المواطن الأثينى فى هذه الفترة ، و فى ظل غياب فرصة التعليم المنتظم و الموجه الذى يشمل كافة الطبقات (١٥) ، لم يكن قادرا على مواكبة الأحداث و استيعاب الدور المنوط به فى ظل الديمقراطية ذات الشكل النموذجى والمضمون الزائف .

---

(14) Green , Peter , Op.Cit, P 117-118.

(15) Isoc., Areopagus , 44-45 .

Cf: Pl., Prt., 326 C ; Ar., Ιππ., 188sqq - 1234 sqq ; Plut., Education of childern 11 E .

٥- رغم حرص الأثينيين على اقامة نظام ديمقراطي كامل و تلافي عيوب تجاربهم السابقة منذ الحكم الملكي و حتى حكم الطغاة ، فإنهم لم يتخلصوا من النزعة الطبقية ، و إن اختلف مفهومها هذه المرة ، فلم تعد مرتبطة بالثروة أو ملكية الأرض ، و لكنها صارت طبقية حاملي هذه المواطنة(١٦) ، ذلك أن النظام الديمقراطي الأثيني قد تمت صياغته بحيث يشمل كافة المواطنين الأثينيين ، أي أن كل من لا يملك حق المواطنة لا يحق له التمتع بمميزات هذا النظام ، فإذا علمنا أن المجتمع الأثيني في هذه الفترة كان زاخرا بالأجانب و العبيد ، فضلاً عن سكان المدن الأخرى أعضاء حلف ديلوس ، الممول الفعلي للامبراطورية الأثينية ، فإننا سوف نرى أننا أمام نموذج جديد للطبقية السياسية ، فالمواطن في احدى مدن الحلف كان عليه أن يسدد الضرائب بإنتظام ، و تذهب هذه الضرائب إلى أثينا ، فتقوم أثينا بإنفاق هذا المال كأجور لمواطنيها لقاء حضور جلسات الجمعية الشعبية (الاكليزيا) تدعيماً للديمقراطية .

و هكذا تكون الديمقراطية حقاً أريد به باطل ، و تكون هذه الممارسات سبباً في حنق الحلفاء على أثينا و نظامها و تحينهم الفرصة للتخلص من هذا التحالف غير العادل(١٧).

٦- لم تكن الاصلاحات السياسية سواء في مرحلة سولون أو مرحلة كلايستينيس كافية للقضاء على الفوارق الطبقية الشاسعة بين الأثينيين ، و لم يكن النظام الاقتصادي الأثيني يسمح للعامة بالتخلص من قيود الفقر الشديد (١٨) ، و قد أدى ذلك إلى غياب عنصر الديمقراطية الاجتماعية من التطبيق الديمقراطي الأثيني ،و ظل المواطن الأثيني الفقير على شعوره بالدونية ،و عدم القدرة على المشاركة الفعالة في ادارة شئون مدينته و كانت النتيجة الحتمية لهذا الوضع هي اقتصار القيادة السياسية للمدينة ، رغم الديمقراطية ، على رجال من

---

(16) Arist., Αθηναιων Πολιτεια., VIII.2-3-4.
(17) Powell., Op.Cit, P 112-113 ; 120 .
(18) Hdt, VII, 102 .
Cf: Austin .M.M& Vidal Naquet, Economic and Social History of Ancient Greece , P 138 .

الطبقة الارستقراطية أو التجار، أو بعض المغامرين الذين يجيدون لعبة السياسة(١٩)، أى أن الأمر لم يختلف فى جوهره عن نظم الحكم السابقة التى تداول السلطة فيها ملك الأرض والأثرياء و الأفاقون ، أما المشاركة الشعبية الحقيقية فإنها لم تكن لتقوم لها قائمة دون أهم دعاماتها ، و هى الديمقراطية الاجتماعية .

تلك هى أهم الأسباب التى عاقت النظام الديمقراطى الأثينى ، و أدت إلى اجهاض التجربة الرائدة فى الحضارات القديمة ، و لعل أهم النتائج التى تمخض عنها فشل الأداء الديمقراطى الأثينى فى القرن الخامس ق.م هى كارثة الحروب البلوبونيزية التى أودت بامبراطورية أثينا وزعامتها و أسطولها البحرى و أوقفت مسيرتها السياسية و الثقافية(٢٠) ، وجعلت منها مجرد تراث تتدارسه الشعوب جيلاً بعد جيل

---

(١٩) لم تكن الديمقراطية الاجتماعية أو اصلاح أحوال الفقراء بشكل جذرى من الأهداف الأساسية لصانعى القرار فى أثينا فى القرن الخامس ، ففى خطبة بركليس التى يسوقها لنا ثوكيديديس لا نجد أية أشارة لاصلاح أحوال الفقراء ، و لكن تركيز على حريتهم السياسية فى الممارسة أمام سائر الطبقات الأخرى .

أنظر : Thuc., 2. 37 . 1-2 .

(21) Duruy , Op.Cit ., T .II , P.P 109-111 .